٤ – الشاعر الذى قتل وحرقت جثته

لسان الدين بن الخطيب

بقلم الاستاذ الجليل : الشيخ أحمد السكندرى

أستاذ الادب العربى بدار العلوم

شعره

منزلته فى الشعر : يعتبر ابن الخطيب من أشعر أهل المغرب والمشرق فى عصره إن لم يكن أشعرهم جميعاً ، كما يشهد بذلك ابن خلدون ؛ ولا يحول ذلك دون أن يكون بعض شعره مرذولا متكلفا نابيا عن تمثيل صورة الأدب الرائع ، والخيال البديع ، واللفظ الرشيق ، كما سنبينه.

وقد نظم لسان الدين الشعر فى كل أغراضه وفنونه ، ومنها الشكوى إلى رسول الله والاستغاثة به ، وكثيراً ما كان يفتتح رسائل الشكوى النبوية بقصائد طنانة ، كما كان يفعل ذلك فى الالتجاء إلى قبور الملوك من بنى مرين ، استمداداً للمعونة من أبنائهم وأحفادهم ، ليظاهروا بنى الأحمر على دفع الأسبان عن ملكهم . وكان فى أكثر ما اطلعنا عليه من مدائحه النبوية والسلطانية يؤثر التسيب على طريقة القدماء من ذكر : المنازل ، والأطلال ، والدمن ، والظعن ، والظعائن ، والبروق ، وهبوب النسيم ، ونحو ذلك ؛ وقلما ورد فى قصائده المطولة ابتداء بغزل فى المذكر على طريقة المتأخرين من وصف العذار ، والخصور ، والأرداف ؛ وإنما ذكر ذلك فى المقطعات ، وإذا سمح له تصريح بمجون واستهتار تنصل من معرته بمحاكاته المشارقة فى الخلاعة ، فيقول كذا على طريقة المشارقة ، أى فى قلة المبالاة بذكر العورات ؛ ولعل الحامل له على هذه التقية علو كعبه فى الدولة وأخذه بناصية مناصبها ، وأن الروح المتغلب على أهل عصره روح جهاد فى الدين ودفاع عن الحوزة ؛ وإنما تكون الخلاعة من رغد العيش وصفاء الزمان وأمن السرب وهدوء البال ؛ وذلك ما لم يكن بين عصابة الأندلس قبيل الانقضاض .

لفظ شعره وأسلوبه : تغلب على شعر ابن الخطيب كما غلبت على نثره جزالة اللفظ وفخامته ، والميل إلى استعمال ما يحبه الطبع السليم من الغريب ، شأن الفحول من شعراء الأندلس المتقدمين من أمثال : ابن دراج ، وابن عبد ربه ، وابن عمار ، وابن خفاجة ؛ وجعلنا ذلك من نعت شعره إنما هو بالاضافة إلى أهل زمانه وخاصة الشرقيين منهم ، فقد كان يغلب فيهم رقة اللفظ وإيثار

المستعمل المشهور ولوسوقيا ، ولا يعدون فى أساليبهم مشهور التأليفات اللفظية التى تفهم بمعرفة القليل من قواعد العربية لمكان العجمة من ملوكهم ورؤسائهم وقلة تحفيهم بالشعر البليغ الرصين اللفظ الدقيق المعنى ، واستعاضتهم عنه بأنواع الزجل والمواليا.

ويمتاز شعر ابن الخطيب من شعر متقدمى شعراء الاندلس بتعمد استعمال البديع فى شعره، محاكيا فى ذلك المشارقة على قصد منه وقلة إسراف وإفراط ، فحسن وقوعه منه فى حسن التشبيه والاستعارة ، إذ كانا أنفس بضاعة رائجة السوق عند شعراء الأندلس، قديمهم وحديثهم، بل ربما شأوا المشارقة فى مضمارها كما حسن فى الطباق والمقابلة والتدبيج والارصاد ونحو ذلك ، غير أنه قصر باعه فى التورية الرقيقة اللطيفة الاستخراج التى ترمى إلى نكتة بديعة ؛ إذ لم تكن التورية من الصناعات العريقة النسب فى الاندلس، بل كانت بدعة مشرقية أمعن فيها القاضى الفاضل ومتابعوه ، فحاكاهم متأخرو الاندلسيين والمغاربة، فغث استعمالهم لها، وقلما سلمت لهم فيها نكتة دقيقة ؛ ولما أعيتهم الصناعة اللفظية فى تصويرها فى أجمل صورها عدلوا بها إلى التوجيه باصطلاحات العلوم ، فكان شعر ابن الخطيب فى التورية صورة توضح طريقة متأخرى الاندلس فى استعمالها أكمل توضيح ؛ ولم يجد ابن الخطيب فى الجملة استعمال الجناس، فسمح فى بعض الأبيات وحسن فى الآخر على كثرة إيراده له فى شعره .

معانى شعره : إن معانى الشعر : من تمثيل صورة مطابقة لمحسوس يتأتى حصولها خارج الذهن ، أو تخييل صورة منتزعة من محسوس غير متأتية الحصول خارج الذهن ، أو شرح حال لصورة حقيقية غير محسوسة ولا منتزعة من محسوس ولا يتأتى حدوثها خارج الذهن ، أو تعقل حكم على شىء بصفة ثابتة له أو متعاورة عليه: من تقرير حكمة، وتوقيف على تجربة، وتعليل لحادث ـ كل أولئك لا يصدر عن خاطر الشاعر، وافر العدد ، متنوع الشكل ، باهر المثال، رائعا للنفوس، قارا فى القلوب، إلا إذا كان الشاعر قد اجتمع فيه: توقد ذهن، وصفاء ملكة، وسلامة طبع، ووفرة بحث، وسعة مشاهدة ، وعظم اضطلاع بمزاولة كثير من الاعمال .

وكل ذلك قد منحه قاسم الحظوظ لابن الخطيب فجاءت صور معانيه، فى جملتها لا فى تفصيلها، جارية على النحو الذى وصفنا ، وإنما تخلف عنه ما تخلف لتنازع كل من الحقائق العلمية والتجارب الصحيحة ، ومن الصور الخيالية حواشى طبعه فى الادراك وأطراف ملكته فى صوغ اللفظ ، فاعتاص عليه إبراز كثير منهما فى صورته اللائقة به كما عاق هذا التنازع غيره من قدماء الفحول من أمثال: المتنبى، والمعرى؛ وقد حدث ذلك فى نظمه ونثره ، فكما وقع فى معانى شعره شىء من الحقائق العلمية وقع فى كتبه العلمية كثير من الأخيلة الشعرية، كما يشاهد ذلك فى عبارات كتاب الحب ؛ إذ لا تسلم لامرىء ملكة فى صناعة من شوائب صناعة أخرى إلا بالتوفر على الصناعة الأولى وحدها ، وقصر النفس عليها وجل المتفرد بالكمال سبحانه . على أنه قد سلمت

له طائفة من المعانى البديعة الصور، الدقيقة الاستخراج، لم يحم حولها خاطر شاعر فيما نعلم، ونرجح أنه أبو عذرتها، وناسج بردتها، وأنها وليدة اختراعه، وثمرة حسن تأتيه؛ ونكتفى هنا بذكر نماذج من شعره تتعرف منها:—

أولا — جودة استعماله للألفاظ والأساليب، وتصرفه فى صناعة البديع، وخاصة: حسن التشبيه، والاستعارة، والتورية، والتوجيه.

وثانيا — لطف استخراجه لكثير من المعانى المخترعة أو الدقيقة التصور.

وثالثا — ما أخذ عليه من القصور عن الاجادة فى الألفاظ والمعانى.

فمن النوع الأول قوله فى مطلع استغاثة نبوية:

إذا فاتنى ظل الحمى ونعيمه ... فحسب فؤادى أن يهب نسيمه

ويقنعنى أنى به متكنف ... فزمزمه دمعى وجسمى حطيمه

وقوله فى مطلع مدحة نبوية بمناسبة الاحتفال بمولده الشريف صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين:

تألق نجديا فأذكرنى نجدا ... وهاج بى الشوق المبرح والوجدا

وميض رأى برد الغمامة مغفلا ... فمد يداً بالتبر أعلمت البردا

لك الله من برق كأن وميضه ... يد الساهر المقرور قد قدحت زندا

تعلم من سكانه شيم الندى ... فغادر أجراع الحمى روضة تندى

وتوج من نوارها قنن الربا ... وختم من أزهارها القضب الملدا

وقوله من مطلع قصيدة يهنىء بها سلطانه وقد احتفل لاعذار ولده:

شحطت وفود الليل بان به الوخط ... وعسكره الزنجى هم به القبط

أتاه وليد الصبح من بعد كبرة ... أيولد أجنى ناحل الجسم مشمط

كأن النجوم الزهر أعشار سورة ... ومن خطرات الرجم أثناءها مط

وقد وردت نهر المجرة سحرة ... غوائص فيه مثلما تفعل البط

ومنها:

لى الله من نفس شعاع ومهجة ... إذا قدحت لم يخب من زندها سقط

ونقطة قلب أصبحت منشأ الهوى ... وعن نقطة مفروضة ينشأ الخط

فأقسم لولا زاجر الشيب والنهى ... ونفس لغير الله ما خضعت قط

لريع لها الأحراس منى بطارق ... مفارقه شمط وأسيافه شمط

وقوله من مدحة نبوية:

هل كنت تعلم فى هبوب الريح ... نفسا يؤجج لاعج التبريح

أهدتك من شيح الحجاز تحيـة فاحت له عرض الفجاج الفيح

وفيها يقول :

ودجنة كادت تضل بها السرى لولا وميضا بارق وصفيح
رعشت كواكبجوها فكأنها ورق تقلبها بنان شحيح
صابرت منها لجة مهما ارتمت وطمت رميت عبابها بسبوح
حتى إذا الكف الخصيب بأفقها مسحت بوجه للصباح صبيح
شمت المنى وحمدت إدلاج السرى وزجرت للآمال كل سنيح

ومن بدائع تشبهاته واستعاراته قوله فى وصف حمامة:

وخضيبة المنقار تحسب أنها نهلت بمورد دمعى المسفوح

وقوله :

سهرنا وفى سير النجوم اعتبارنا إلى أن ضفا لليل من فوقنا ريط
فخلنا شهاب الرجم إبرة خائط مسوحا وما يبقى من الذنب الخيط

وقوله :

جاء العذار بظل غير ممدود فمنتهى الحسن منه غير محدود
ناديت قلبى إذ لاحت طلائعه ياصبر أيوب هـذا صوت داود

وقوله وقد أعجبه نشاط ولده :

سرق الدهر شبابى من يدى ففؤادى مشعر بالكمد
وحمدت الله إذ أبصرته باع ما أفقدنى من ولدى

وقوله من قصيدة يهنىء بها ملكه باستعادته ملكه :

لله موقفك الذى وثباته وثباته مثل به يتمثل
والخيل خط والجال صحيفة والسمر تنقط والصوارم تشكل
والبيض قد كسرت حروف جفونها وعوامل الأسل المثقف تعمل

وقوله من هذه القصيدة يصف الخيل وفوارسها :

صبحتهم غرر الجياد كأنما سد الثنية عارض متهلل
من كل منجرد أغر محجل يرمى الجلاد به أغر محجل
زجل الجناح إذا أجد لغاية وإذا تغنى للصهيل فبلبل
جيد كما التفت الظليم وفوقه أذن ممشقة وطرف أكحل
فكأنما هو صورة فى هيكل من لطفه وكأنما هو هيكل

وقوله :

بلد تحف به الرياض كأنه وجه جميل والرياض عذاره
وكأنما واديه معصم غادة ومن الجسور المحكمات سواره

وقوله :

سلام على تلك المرابع إنها معاهد ألافى وعهد صحابى
ويا آسة المغنى النعمى فلطالما سكبت على مثواك ماء شبابى

ومن محاسنه فى الطباق :

أرادوه فارتدوا وجاروه فانثنوا وساموه فى مرقى الجلالة فانحطوا

وقوله فى حال الأمن :

فأيقن مرتاب وأصحب نافر وأذعن معتاص وأقصر مشتط

ومن محاسن تورياته — وإن لم تكن هذه الغاية من منافذ خواطره — مانبه عليه بنفسه قال رحمه الله فى كتابه المسمى بالصيب والجهام فن التورية على طريق المشارقة قولى :

مضجعى فيك عن قتادة يروى وروى عن أبى الزناد فؤادى
وكذا النوم شاعر فيك أمسى من دموعى يهيم فى كل واد

ومن قصيدة فى وصف فرس :

فبوأته من مهجتى متبوأ خفيا على سر الفؤاد المكتم
فيا عجبا منى وفرط تشيعى أديم بوجدى فيه وهو ابن ملجم

وفى رجل يحتال على الولاية :

حلفت لهم بانك ذو يسار وذو ثقة وبر فى اليمين
ليستندوا اليك بحفظ مال فتأكل بالیسار وباليمين

ومن محاسن جناسه على قصوره فى هذه الغاية ايضاً :

مالى أهذب نفسى فى مطامعها والنفس تأنف تهذيبى وتهذى بى
إذا استعنت على أمر بتجربة تأبى المقادير تجريبى وتجرى بى

وقوله وفيه تورية مسروقة من المشارقة :

دعوتك للود الذى جنباته تداعت مبانيها وهمت بأن تهى
وقلت لعهد الوصل والقرب بعدما تناءى وهل أسلو حياتى وأنت هى
ومن شام من جو الشبيبة بارقا ولم تنهه عنه النهى كيف ينتهى

احمد السكندرى

(يتبع)